تقديم

على عتبة الطبيعة

في هذه المجموعة أحاديث عن خمسة من أكبر شعراء الطبيعة في العالم قديمه وحديثه ، وهم : ثورو الأمريكى ، ووردزورث الانجليزى ، وشاتوبريان الفرنسى ، وڤرچيل الرومانى ، وجيتى الألمانى ...

وكلهم مبدع فى الغاية من ابداعه ، مقتدر الى الغاية فى فنه وأسلوبه ، ولكننا نلمس عظمة هذه الطبيعة الواسعة ، بل عظمة الخالق فى خلقه ، حين ندرك من مطالعتهم جميعا أن « الطبيعة » على اختلاف المقصود بها هى أوسع آفاقا وأبعد أعماقا ، وأوضح جمالا ، وأخفى أسرارا ، من أن يحبها عشاقها المحبون لحسنة واحدة ، أو على منهج واحد ..

لأن كلا من هؤلاء العباقرة الأفذاذ منهج وحده فى اعجابه بهذه الطبيعة ، وفى تعبيره عن ذلك الاعجاب ، ويوشك أن تكون الطبيعة عندهم طبيعات متعددة ، أو طبيعة واحدة ينظر اليها هذا من جانب غير الذى ينظر اليه ذاك ، وان كان كل جانب من هذه الجوانب يكشف لنا جانبا من المحاسن والأسرار ويغرى بجوانب أخرى يحجبها ستار ويكشف عنها ستار .

ثورو ، محب الطبيعة الذى يراوح النظر بين الغاب والغدير ليعيش ساعة بين خلائق الهواء ، وتارة أخرى بين خلائق الماء ،

ويرقب الكهوف كما يرقب السراديب ، ويربط وشائج الألفة بالبعيد كما يربطها بالقريب ، دارسا متعلما ولكن ليعنيه من الدرس والتعلم — قبل المعرفة — أن يعيش مع خلائق الماء وخلائق الأرض والهواء ، معيشة الأحياء مع الأحياء ، والأصدقاء مع الأصدقاء ، لا معيشة الصائد مع القنيصة والفريسة ، ولا معيشة العالم مع الصفحات والأقلام .

ووردزورث ، محب الطبيعة الذى يسكن من أجماتها وبحيراتها الى محراب للعبادة على سنة الفن وعلى سنة الدين ، يعرفها ليقتبس المعرفة منها ، ويستبطن أسرارها الخفية ليهتدى منها الى أسرار النفس الانسانية .

وشاتوبريان ، محب الطبيعة الذى يتحلى جمالها بعينيه لينقل منه صورا للجمال فى خياله ، ويعيدها أطيافا وأرواحا فى مرآة أحلامه وآماله .

وڤرچيل ، محب الطبيعة الذى يحب منها الكنز الساحر بجواهره ، الغنى بذخائره ، حبا للمتعة بالمحاسن والشمائل ، وحبا للمتعة بطيبات الفاكهة والثمر ، وخيرات الزروع والضروع .

وجيتى ، محب الطبيعة الذى يحبها حب المعجب الذواقة لكل منظر فاخر وكل معرض أنيق ، ويحسبها من سمائها الى أرضها فرجة للقلب والعيان ، كفرجة الحقل والبستان ، تسعده بالفهم وبالنزهة فى آن .

وكل أولئك صورة من صور الطبيعة الخالدة ، توشك أن تنسى اليوم بين دوى الآلات وضوضاء المصانع ، ولجب الأسواق ، وتعاد الى الذاكرة فى أوانها لتعيد الحنين الى الموطن الذى يشغل عنه من يشغل من أبناء العصر الحديث : عصر المصنع والحاضرة .

وقلما تستجاب اليوم دعوة الداعين الى أحضان الطبيعة دارا للسكنى ومرجعا للمقام .

ولكن الذين تجذبهم الطبيعة اليها مرتعا لرياضة الجسد والروح ، وصفحة للنظر والفهم ، ومجالا للتأمل والاطلاع ، أكثر من الكثير .

عباس محمود العقاد